



مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعية - محكمة

تصدر سنوياً عن

كلية الدعوة الإسلامية

العددان الواحد والثلاثون والثاني والثلاثون

لسنة 1439 - 1440 الهجرية الموافق: 2017 - 2018 الميلادية

الهُدَى النُّبَوِيَّةُ فِي الطَّبِّ بَيْنَ الْوَقَايَةِ وَالْعِلَاجِ

د. زكية بالناصر القعود
جامعة بنغازي - ليبيا

المُقدِّمة :

منذ مطلع النبوة الشريفة كان هناك طب نبوي كريم، تتمثل مصادره في نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فقد ورد في القرآن ما يزيد على أربعين آية تتعلق بالطب. وقد اشتهرت عدة مؤلفات تتحدث عن الطب النبوي، جمع فيها أصحابها الأحاديث النبوية التي تتعلق بالطب والعلاج، من أهمها صحيح البخاري الذي اشتمل على كتابين من الجزء السابع يتصلان بهذا الأمر؛ حيث يبدأ البخاري الكتاب الثاني بحديث النبي: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء»⁽¹⁾. وقد احتوى الكتاب الأول على ثمانية وثلاثين حديثاً، واحتوى الثاني على واحد وتسعين حديثاً. ومن هذه المؤلفات في الطب النبوي كتاب الطب النبوي للذهبي⁽²⁾، وكتاب الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ابن طرخان، وكتاب الطب النبوي لأبي جعفر المستغفري، وكتاب الأربعين المستخرجة من سنن ابن ماجه التي شرحها

(1) البخاري، أبو عبد الله بن محمد إسماعيل، صحيح البخاري، دار الثقافة (بيروت، 1991م)، كتاب الطب، 7/ 224.

(2) الذهبي، الطب النبوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (القاهرة، 1961م)، ص 103.

الطبيب البغدادي⁽¹⁾، ومنها -أيضاً- كتاب المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي للسيوطي، وكتاب الطب النبوي للعلامة ابن القيم الجوزية⁽²⁾.

وهنا نُشير تساؤلاً كيف كان هديه عليه السلام في معالجة الأمراض التي تعترى الأبدان؟

ويتَّضح هذا من هديه في الطب الذي تطبَّب به ووصفه لغيره، ونُبِّئ ما فيه من الحكمة التي عجزت عقول أكبر الأطباء عن الوصول إليها، قال ابن القيم: «المرض نوعان: مرض القلوب ومرض الأبدان»⁽³⁾. وهذا يتفق مع ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: «فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ»⁽⁴⁾، وقوله تعالى: «وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا»⁽⁵⁾، وقوله: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ»⁽⁶⁾.

وقد ذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء. قال تعالى: «أَيَّامًا مَعْدُودَةٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ»⁽⁷⁾، وقال تعالى: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِدَةٍ أَدَى مِنْ رَأْسِهِ فَعِدَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ»⁽⁸⁾، وقال تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا»⁽⁹⁾.

- (1) البغدادي، موفق الدين عبد اللطيف، الطب النبوي، تعليق عبد المعطي قلنجي، دار المعرفة (بيروت، 1986)، ص 98.
- (2) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، الطب النبوي، تعليق عادل الأزهر فرج، دار الكتب العربية (بيروت، د.ت)، ص 189.
- (3) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، دار الكتب العلمية (بيروت، 1970)، ص 200/2.
- (4) سورة البقرة، الآية: 10.
- (5) سورة المدثر، من الآية: 31.
- (6) سورة النور، من الآية: 61.
- (7) سورة البقرة، من الآية: 183.
- (8) سورة البقرة، من الآية: 196.
- (9) سورة النساء، من الآية: 43.

ويتَّضح من هذه الآيات الكريمة أنَّ الله وَصَّح لعباده قواعد طب الأبدان الذي يشمل حفظ الصَّحة والحِمْية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة؛ حيث بيَّن سبحانه هذه الأصول في الصَّوم، وأباح الفطر للمريض، لعُذر المرض، وللمُسافر للحفاظ على صِحَّته وقوَّته. وفي الحَجَّ أباح للمريض ومن به أذى من رأسه، من قَمَل أو حَكَّة أو غيرها، أن يحلق رأسه في الإحرام استفراغاً لمادَّة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشَّعر. فإذا حَلَقَ رأسه، فتحت المسام، فخرجت بذلك الأبخرة منها⁽¹⁾. وأمَّا الحِمْية فقد أباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب، حِمْية له أن يُصيب جسده ما يؤذيه⁽²⁾.

وعمل على مُعالجة الأمراض التي تصيب الأبدان بطريقتين؛ أولاهما: حفظ الصَّحة، التي تعرف بلُغة الوقت الحاضر بالطب الوقائي. الثانية: التداوي، وهي مُعالجة الأمراض التي تعترى جسم الإنسان بالأدوية أو الجراحة. ويقصد بالطب الوقائي: الاحتراز من الوقوع في المرض، باتِّباع قواعد الصِّحَّة العامَّة. فقد جاء الإسلام بالقوانين التي وضعها الخالق لخلقه، وتَسعى إلى المُحافظة على خَلْق الله في وضعه الأمثل. قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾⁽³⁾؛ لأنَّ المقصد الأساسي من مقاصد الشريعة الإسلامية هو جلب المصالح للعباد ودرء المفاسد عنهم⁽⁴⁾. يقول السيوطي: «اتَّفقت الأُمَّة على أنَّ الشريعة وضعت للمُحافظة على الضَّروريات الخمس، وهي: الدِّين

(1) ابن قيم الجوزيَّة، الطب النبوي، ص68، كذلك البخاري، باب الحلق من الأذى، 7/229.

(2) النسيمي، محمد ناظم، إبداع الرسول العربي في فن الصحة والطب الوقائي، أبحاث الندوة العِلْمِيَّة الأولى لتاريخ العلوم عند العرب (الفترة ما بين 5-12/4/1976م)، مطبعة جامعة حلب، (حلب 1976)، ص42.

(3) سورة الأعلى، الآيةان: 1-2.

(4) السعيد، أيمن محمود، أصول الطب الوقائي في الحديث النبوي، ص43. وكذلك صاحب، محمد عيد محمود، التغذية والطب الوقائي، ص35.

والتَّفَسُّ والنَّسْلَ والمال والعقل. وأنَّ ثلاثاً من هذه الصَّرُورِيَّاتِ الحَمْسُ، وهي النفس والنسل والعقل، لا تكتمل المُحافظة عليها إلَّا بالحفاظ على الصَّحَّة. كما جعل الصَّحَّة في المقام الأوَّل فقال: «سلوا الله المُعافاة، فإنَّه لم يُؤتَ أحد بعد اليقين خيراً من المُعافاة»⁽¹⁾.

نجد في كتاب الله ﷻ وسُنَّة نبيِّه كثيرًا من التَّصوُّص التي لو أنَّنا تعمَّقنا في فهمها وطبقناها تطبيقاً رشيداً لوجدنا بين أيدينا سِفرًا مُسهباً في فقه الصَّحَّة⁽²⁾.

والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها على سبيل المِثال لا الحَصْر، الوضوء الذي يفرضه الإسلام على الإنسان المُسلم؛ حيث أمره بالوضوء كلَّما انتقض وضوؤه، مع التَّغريب في الإكثار منه وتكراره عند كُلِّ مَنْسَك، فقد قال: «مِفْتَاح الصَّلَاة الطَّهُّور»⁽³⁾. وقوله: «الوضوء شَطْرُ الإِيْمَان»⁽⁴⁾. ونجد في حَثِّ الرسول الكريم على تكرار الوضوء تأكيداً على النَّظَافة العامَّة لأجزاء جسم الإنسان، لما يشمله الوضوء من نظافة الأعضاء والأطراف. ولا يقتصر هُذيه على النَّظَافة العامَّة، بل لقد حَثَّ على النَّظَافة الموضعيَّة، في مثل قوله: «قَصُّوا الأظافر واحلقوا العانة وانتفوا الإبطين يوم الخميس»⁽⁵⁾.

(1) السيوطي، جلال الدِّين عبد الرحمن، مختصر الطب النبوي، تحقيق: إبراهيم محمد الجمل ونشأت المصري، دار أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، (تونس، د.ت)، ص36. ويقول العالم عز الدِّين عبد السَّلام في كتابه قواعد الأحكام في مصالح الأنام: «الشَّريعة كُلُّها إمَّا تدرأ مفاصد أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْرُ مَأْمُونًا﴾ فتأمل وصيَّته بعد ندائه، فلا تجد إلَّا خيراً يحثُّك عليه أو شراً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحثِّ والزجر». انظر: الخياط، محمد هيثم، فقه الصَّحة، المطبعة العالميَّة، 1996، ص3.

(2) فقه الصَّحَّة: يقصد به الوقاية من الأمراض.

(3) رواية الترمذي في السنن، رقم الحديث 618، 2/245.

(4) ابن حنبل، أحمد، مسند ابن حنبل، دار المعارف، (القاهرة، 1945م)، ص1/157.

(5) الترمذي، صحيح الترمذي، بشرح الإمام ابن العربي المالكي، ط (1) الصاوي (القاهرة، 1943م)، 8/11.

ومِمَّا حَثَّ عَلَيْهِ الإسلام حفظ صِحَّة الفم والأسنان. قال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «لَوْ لَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرَتِهِمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»⁽¹⁾.

وقال ﷺ: «تَسَوَّكُوا فَإِنَّ السَّوَاكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ وَمَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»⁽²⁾. ومن هُنَا ندرك عُمُقَ الْحِكْمَةِ النَّبَوِيَّةِ لِلْفَوَائِدِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي اسْتِعْمَالِ السَّوَاكِ⁽³⁾.

ومن أشهر ما أَثَّرَ عَنِ النَّبِيِّ فِي مَجَالِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى صِحَّةِ الْأَبْدَانِ قَوْلُهُ: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ. بِحَسَبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يَقْمَنُ صُلْبِهِ. فَإِنْ كَانَ لَا بَدَ فَاعِلًا، فَتُلْثَ لَطْعَامُهُ، وَتُلْثَ لَشْرَابُهُ، وَتُلْثَ لِنَفْسِهِ»⁽⁴⁾.

ومن أقوال الحكماء: «جوعوا تصحوا»؛ ذَلِكَ أَنَّ كَثْرَةَ الطَّعَامِ تُحْدِثُ التَّخَمَةَ، وَتُلْبِّكُ الْمَعِدَةَ، وَتُؤَدِّي إِلَى عُسْرِ الْهَضْمِ وَعَدَمِ اكْتِمَالِ الْامْتِصَاصِ، وَأَنَّ التَّرَاكُمَ يُؤَدِّي إِلَى الْإِلْتِهَابَاتِ⁽⁵⁾.

العِلْمُ الْحَدِيثُ يؤكد خُطُورَةَ الْإِسْرَافِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عَلَى الْفَرْدِ نَفْسِهِ وَعَلَى مِنْ حَوْلِهِ وَعَلَى بَيْتِهِ، وَرَبَّمَا ندرك بعد هذه الحقائق أَهْمِيَّةَ النَّدَاءِ الَّذِي أَطْلَقَهُ الْقُرْآنُ فِي زَمَنِ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ، عِنْدَمَا أَمَرْنَا الْقُرْآنُ أَنْ نَتَّبِعَ نِظَامًا غِذَائِيًّا مُتَوَازِنًا فَلَا نُبَالِغُ أَوْ نُسْرِفَ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾⁽⁶⁾.

فقد جعل الله الإسراف ذنباً ينبغي أن نتجنبه، وجعل الاعتدال في

(1) النيسابوري، أبو الحسن مسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ط4، (بيروت، 1991)، كتاب الطهارة، 204/1.

(2) البخاري: كتاب اللباس، 293/7.

(3) الإمام مالك في الموطأ، دار الآفاق، (المغرب، 1999)، ص58. أثبتت التجارب الْعِلْمِيَّةُ الْحَدِيثَةَ أَنَّ إِهْمَالَ تَنْظِيفِ الْأَسْنَانِ يُؤَدِّي إِلَى تَعَفُّنِ الْغِذَائِيَّةِ وَتَكَاثُرِ الْمِكْرُوبَاتِ وَإِصَابَةِ الْأَسْنَانِ بِالتَّسْوُسِ وَإِصَابَةِ اللِّثَةِ بِالْإِلْتِهَابَاتِ. انظر: هناء فوزي، مناهج الأطباء، ص57.

(4) ابن حنبل، 157/1.

(5) هناء فوزي، مناهج الأطباء، ص57.

(6) سورة الأعراف، من الآية: 31.

الإنفاق والطعام والشراب أمراً يُحبه الله، ويُعطي عليه الأجر؛ لأنَّ الله يُريد لنا الخير في الدنيا والآخرة.

إنَّ جميع العلماء ينادون بأهميَّة الالتزام بالتوازن الغذائي وعدم الإسراف في الطَّعام والشراب، ويقولون إنَّ هذا أفضل طريق لعلاج الوزن الزائد. أليس هذا ما نادى به القرآن قبل أربعة عشر قرناً⁽¹⁾؟

لقد وضع لنا القرآن ميزاناً لنلتزم به في إنفاق الأموال، فلا نُسرف ولا نُقتر، بل نكون مُتوازنين في حياتنا الاقتصادية، وما هذه الأزمات التي نعيشها اليوم إلَّا بسبب الابتعاد عن التوازن الطبيعي الذي فطر الله الأرض عليه. ويقول تعالى في صفات عباد الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾⁽²⁾.

إنَّ الذي يتأمل آيات القرآن يُلاحظ أنَّ المولى تبارك وتعالى يأمرنا بعدم الإسراف في كُلِّ شيء، سواء في الطَّعام أو الشراب، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ، يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾⁽³⁾.

فانظروا معي كيف ربط البيان الإلهي بين النِّعم التي سخَّرها الله لنا من فواكه ونخيل وغير ذلك، وبين الإسراف من جهة، وبين خُطوات الشيطان من جهة ثانية. فهذه إشارة إلى ضرورة أن يتجنَّب المؤمن الإسراف في أكله، وهذا ما يُنادي به علماء الغرب اليوم.

ولو تأملنا أحاديث الحبيب الأعظم ﷺ نجده يؤكد على أهميَّة أن نلتزم بنظام غذائي عندما قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم

(1) سورة الأعراف، الآية: 31.

(2) سورة الفرقان، الآية: 67.

(3) سورة الأنعام، الآيتان: 141-142.

أكلات يُقمن صُلبه فإن كان لا محالة فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»⁽¹⁾. فتأملوا هذه القاعدة النبوية المذهلة كيف ورَّع الطَّعام والشراب ولم ينسَ حتى الهواء! ولو درسنا جميع حالات الوزن الزائد لرأينا أنَّ هُناك خللاً في هذا التوزيع، فنجد أنَّ الطَّعام يَظغى على الشراب أو العكس.

ممَّا نادى به الطَّب الحديث للحفاظ على الصَّحَّة المشي وهذا ما أكَّدته السُّنة المُحمديَّة في قوله ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدَّرجات»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصَّلَاة بعد الصَّلَاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط»⁽²⁾.

فلقد وجد العلماء أنَّ رياضة المشي مهمة جدًّا للإنسان وبخاصة بعد سن الأربعين. ووجدوا أنَّ رياضة المشي تقي من كثير من الأمراض أهمها البدانة والسكر والقلب. وربما من أغرب النتائج التي وصل إليها باحثون أميركيون أنَّ المشي يُنشِّط الذاكرة ويزيد من القدرة على الذكاء والإبداع، وبخاصة إذا كان المشي تأملياً!⁽³⁾

أي: أنك تمشي وأنت تتأمَّل خَلْق الله وتُفكِّر في نعمه الغزيرة وأنت راضٍ عمَّا قَسَمه الله لك من الرِّزق، وهذا النوع من أنواع المشي لا يتحقَّق إلَّا عندما يمشي المؤمن إلى المَسجد، وبخاصة عند صَلاة الصُّبح! وهذا نوع من العلاج المجاني، فما عليك إلَّا أن تكثر المَشْي إلى المسجد وتُحافظ على أداء الصَّلوات الخمس.

(1) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحديث 47، ص 467.

(2) أخرجه مالك: في الموطأ، ص 118 برقم 58، ومسلم برقم (251). كذلك انظر: السيوطي، ص 132.

(3) عبد الدَّائم الكحيل، الطب النبوي، موقع مجلَّة الدعوة، ص 7.

مجالات حفظ الصّحة:

أولاً - نظافة البيئة المحيطة بالإنسان

لقد حرص الشارع على نظافة البيئة التي ستعكس حتماً على صِحّة الفرد والمُجتمع وتتمثل في:

أ - نظافة المساكن والأفنية: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيْبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النِّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ، فَنَظِفُوا -أراه قال:- أَفْنِيَتَكُمْ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»⁽¹⁾.

ب - نظافة الطُّرقات وأماكن التجمُّع: حثَّ النبي ﷺ على إمطة الأذى عن الطُّرق وعدم التخلّي في طريق الناس وظلّهم فقال: «عرضت عليّ أعمال أمتي حسنّها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يُمَاط عن الطريق ووجدت في مساوئ أعمالها النّخامة تكون في المسجد لا تدفن»⁽²⁾. وقال ﷺ أيضاً: «البصاق في المسجد خطيئة وكفّارتها دفنها»⁽³⁾. وقال ﷺ: «اتقوا اللّعانين، قالوا: وما اللّعانان يا رسول الله! قال: الذي يتخلّى في طريق الناس وفي ظلّهم»⁽⁴⁾.

إنّ المناطق الباردة الرطبة وذات الظل تعتبر جوّاً مُلائماً لنموّ أغلب أنواع البكتيريا وبويضات الديدان؛ وذلك لخلوّها من تأثير الأشعة فوق البنفسجيّة القاتلة للجراثيم والبويضات، وبما أنّ البول والبراز يُعتبران من مصادر هذه الجراثيم والديدان؛ حيث يحتوي الجرام الواحد من البراز على أكثر من مائة ألف مليون جرثومة؛ لذلك نصّح رسول الله ﷺ بعدم التبوّل والتبرّز في الظل»⁽⁵⁾.

(1) سنن الترمذي، كتاب الأدب، 303/3.

(2) رواه البخاري، كتاب الطب، 224/7.

(3) كتاب رياض الصالحين، ص139.

(4) النووي، يحيى بن أشرف أبو زكريا، شرح النووي على مسلم، دار الخير، 1996م، كتاب الطهارة، رقم 268، ص112.

(5) عبد الجواد الصاوي، من إعجاز القرآن والسنة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة، موقع الحسني، ص5.

ثانيا - حِفْظ الطَّعام والهواء والماء من التلوث.

إنَّ جراثيم الأمراض والأوبئة تنتقل بشكل رئيس من خلال الطَّعام والهواء والماء. فأمر الشارع الحكيم بأمر تصبَّ كُلِّها في حِفْظ هذا الثلاثي من التلوث بها.

أ - حِفْظ الطَّعام من التلوث:

يُعتبر تناول الأطعمة الملوثة من أهمِّ وسائل انتقال الأمراض كالتيفود والزُّحار وشلَّ الأطفال والتهاب الكبد الفيروسي؛ حيث تنتقل جراثيم المرض من بُراز المريض أو حامل المرض إلى الإنسان وذلك عن طريق اليد أو الآنية، ونسبة حدوث ذلك تعتمد اعتماداً كبيراً على مُستوى نظافة الفرد والبيئة وتطوُّرها، فهي رسول الله ﷺ وعى بالثقافة الصَّحيَّة بين المسلمين قبل أن تُكتشف الكائنات الدقيقة المُضرة، ليقبهم أخطارها، فأمر المسلمين بتخصيص يد للأكل والمُصافحة، ويد لمُباشرة الأذى والخلاء، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت يد رسول الله ﷺ اليُمْنى لظهوره وطعامه واليسرى لخلائه وما كان من أذى»⁽¹⁾ وقال ﷺ: «يا غلام! سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ ممَّا يليك»⁽²⁾.

ب - حِفْظ الهواء من التلوث:

إنَّ نفخ الهواء يؤدي إلى انتقال كثير من الأمراض المُعدية كالأنفلونزا وشلَّ الأطفال والنُّكاف والحصبة الألمانية والرشح والتهاب الحلق والجدي والسَّل وغيرها من الأمراض وخاصَّة الفيروسيَّة، لذلك وجَّه رسول الله ﷺ أتباعه عدم النفخ والتنفُّس في آنية الأكل والشُّرب، كما أمرهم بتغطية الوجه أثناء العطاس والتَّسَّوُّب، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يتنفَّس في الإناء أو ينفخ فيه»⁽³⁾.

(1) رواه البخاري، كتاب الوضوء، 84/1.

(2) رواه البخاري في كتاب الأطعمة باب التسمية، 121/7.

(3) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي: فتح الباري في شرح البخاري، دار الريان للتراث، 1986م، حديث 92 وكذلك: رواه مسلم حديث 267.

وفي حديث آخر أَنَّ النبي ﷺ نهى عن التَّنْفُخِ فِي الشَّرَابِ، فقال رجل: الْقَدَارَةُ أَرَاهَا فِي الْإِنَاءِ؟ قَالَ: «أَحْرِقْهَا» قَالَ: فَإِنِّي لَا أُرْتَوِي مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ؟ قَالَ: «فَإِنَّ الْقَدَحَ عَنْ فِيكَ»⁽¹⁾. وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ إِذَا عَطَسَ غَطَّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ أَوْ بَثْوَبَةٍ وَغَضَّ بِهَا صَوْتَهُ»⁽²⁾، وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ»⁽³⁾.

ج - حِفْظُ الْمَاءِ مِنَ التَّلَوُّثِ:

يُعتبر الماء الراكد بيئةً مُلائمةً لنمو الكثير من البكتيريا كالكوليرا والسالمونيلا والشيغلا وغير ذلك، كما تحتاج بعض الطفيليات الأولية والديدان كالزحار الأميبي والديدان المُستديرة والبلهارسيا إلى الماء لإكمال دورة حياتها خارج جِسم الإنسان، ويُساعد التبوُّل والتبرُّز على نمو هذه الطفيليات والديدان وسُرعة تكاثرها وانتشارها، لذلك نهى رسول الله ﷺ عن التبوُّل في الماء الراكد -الذي لا يجري- لكي يبقى الماء في وقاية من التلوث⁽⁴⁾.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَجْرِي ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ»⁽⁵⁾.

كما أوصى رسول الله ﷺ بتغطية الآنية وربط قِرب الماء منعاً من تلوثها من الجراثيم الوافدة والتي تُوَدِّي إلى ظُهور الأوبئة وانتشارها فقال ﷺ: «غَطُّوا الْإِنَاءَ وَأَوْكُوا السِّقَاءَ فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ أَوْ سِقَاءٌ لَيْسَ عَلَيْهِ وَكَاءٌ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَبَاءُ»⁽⁶⁾.

(1) رواه الترمذي حديث 765، وكذلك في رياض الصالحين، ص 114.

(2) رواه الترمذي، في أَدَابِ الْعَطَسِ وَالْعَطَاسِ، حديث 266.

(3) رواه البخاري، كتاب الطب، 237/7.

(4) نقلاً عن عبد الدائم الكحيل: الطب النبوي، موقع مجلة الدعوة، ص 9.

(5) رواه البخاري، كتاب الوضوء، 115/1.

(6) رواه البخاري، باب الكرْع في الحوض، 203/7.

ولوقاية الماء من التلوث -أيضاً- نهى النبي ﷺ عن إدخال المُستيقظ من نوم يده في الإناء قبل أن يغسلها ويطهرها، فلعله مَسَّ أو حَكَ بها سَوَاتِهِ أو عُضْواً مريضاً مُتَفَرِّحاً من جِسْمِهِ وهو نائم، قال رسول الله ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً، فإنه لا يدرى أين باتت يده»⁽¹⁾.

ولحفظ الماء من التلوث -أيضاً- نهى ﷺ عن الشرب مباشرة من فَمِ السَّقَاءِ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «نهى النبي ﷺ أن يشرب من فِي السَّقَاءِ»⁽²⁾. إن المليلتر من اللُّعَابِ يحوي بلايين الجراثيم فعندما تخرج هذه البلايين في لُعَابِ الشَّارِبِ أثناء شُرْبِهِ من إناء كبير، يَمُكث فترة طويلة مصدراً لشُرب كثير من الناس، فتتهدأ الفرصة لتكاثر هذه البلايين وتُسبب تلوثاً لهذا الماء ويصير مصدر خطر لِمَن يَشْرَب منه بعد ذلك⁽³⁾.

ثالثاً - عزل المَرَضِيّ والحَجَرِ الصَّحِّيّ

الحجر الصَّحِّيّ، فقد كان عليه الصَّلَاة والسَّلَام أوَّل من نادى بالحَجَرِ الصَّحِّيّ، وأدرك أهمِّية العَدْوَى في نقل الأمراض، حين قال عن الطَّاعُونَ: «الطَّاعُونَ رَجَزُ أَرْسَلَهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا»⁽⁴⁾.

(1) رواه البخاري، باب الاستجمار وترأ، 86/1.

(2) البخاري، باب الشرب من فَمِ السَّقَاءِ، 204/7، كذلك: نقلاً عن عبد الحميد الزنداني جورج. س. نيلسون، دروس من تعليم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الوقاية من الأمراض الطفيلية، بحث مُقدِّم للمؤتمر العالمي الأوَّل للإعجاز العلمي في القرآن والسُّنة، إسلام آباد- باكستان، 1408هـ، ص189.

(3) عبد الدائم أحمد جواد، الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم، 1407هـ، ط1، دار السلام للطباعة والنشر-القاهرة، ص95.

(4) نقلاً عن كتاب عبد الحميد القضاة، تفوق الطب الوقائي في الإسلام، بحث مُقدِّم للمؤتمر العالمي الأوَّل للإعجاز العلمي في القرآن والسُّنة، إسلام آباد-باكستان، 1408هـ، ص78.

فالرَّسول الكريم نَهَى المُسلمين عن الدُّخول إلى الأرض التي بها الطَّاعون ونهى عن الخُروج منها بعد وقوعه، كمال التحرُّز منه فإنَّ في الدخول في الأرض التي هو بها تعرضاً للبلاء.

وهذا ما يتبع الآن في الوقاية من الطَّاعون، فإذا أُصيبَت مدينة ما بهذا الوباء، أُقيم حَوْلها «حَجَر صَحِّي» يمنع أي شخص من الخُروج منها، ويمنع دخول أي شخص إليها، ما عدا الأطباء ومعاونيهم، وبذلك يمنع المرض من الانتشار خارج هذه المدينة، ويتم حِصار الوباء في مكان واحد ممَّا يسهل فيه مُراقبة المُصابين وعلاجهم.

ولِصَمَان تنفيذ هذه الوصيَّة النبويَّة العظيمة فقد ضَرَب رسول الله ﷺ سُوراً منيعاً حول مكان الوباء، فوعد الصَّابر والمُحتسب بالبقاء في مكان المرض بأجر الشُّهداء، وحَذَّر الفار منه بالويل والثُّبور. في قوله ﷺ: «الفرار من الطَّاعون كالفرار من الرَّحف ومن صَبَرَ فيه كان له أَجر شهيد»⁽¹⁾.

إذا قيل هذا الكلام لرجل صحيح منذ مائتي عام فقط وهو يرى صرعى المرض الوبائي يتساقطون من حَوْلِه وهو بكامل قِواه وقيل له: امكث في مكان لا تخرج، لا اعتبر هذا الكلام جُنوناً أو عدواناً على حقِّه في الحياة، ويفر هارباً بنفسه إلى مكان آخر خالٍ من الوباء، وقد كان المُسلمون هم الوحيدون بين البشر الذين لا يفرُّون من مكان الوباء مُنفَّذين لأمر نبيِّهم ولا يُدركون لذلك حكمة، حتى تقدَّمت العُلوم واكتشفت العوالم الخفيَّة من الكائنات وعرفت طرق تكاثرها وانتشارها وتسبُّبها في الأمراض والأوبئة وتبيَّن أنَّ الأصحاء الذين لا تبدو عليهم أعراض المَرَض في مكان الوباء هم حاملون لميكروب المرض وأنَّهم يُشكِّلون مصدر الخطر الحقيقي في نقل الوباء إلى أماكن أُخرى إذا انتقلوا إليها، وبسبب اكتشاف هذه الحقيقة نشأ نظام الحَجَر الصَّحِّي المعروف عالمياً الآن والذي يمنع فيه جميع سكان المدينة التي ظهر فيها الوباء من الخُروج منها كما يمنع دُخولها للقادمين إليها فمن أطلع

(1) رواه البخاري، باب ما يذكر في الطاعون، 7/ 237.

محمدًا ﷺ على هذه الحقيقة؟ أيمن أن يتكلم أحد عن هذه الحقائق الدقيقة منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان؟ اللهم إلا أن يكون كلامه وحياً يأتيه من عليم خبير بخلقه! حتى يرينا سبحانه آياته فنعرف أنها من ربنا فنحمده على ما من علينا به من تشريع وتكليف⁽¹⁾.

كما أن الطب النبوي لم يغفل المفهوم الوقائي بالنسبة للحيوان وفي ذلك يقول رسولنا الكريم: «لا يوردن مُمْرَضٌ عَلَى مُصِحٍّ»⁽²⁾؛ أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل السليمة، فيعدي مريضها سليمها، ولقد أشار الشاعر العربي إلى ذلك بقوله (كامل):

لا تربط الجرباء حول سليمة خوفاً على تلك السليمة تجرب

بذلك قد عرف رسول الله - العَدُو، وأوضح المفهوم الوقائي قبل أن تعرف الجراثيم، وقبل أن يعرفها أطباء الشرق والغرب.

في قوله ﷺ: «فرّ من المجذوم فرارك من الأسد»⁽³⁾. وفي هذا الحديث ما يوضح حرص رسولنا العظيم على خَطَر الأمراض البوائية، كما أنه لفت للنظر في هذا الحديث يُشير إلى دور من أدوار مرض الجذام يبدو فيه المُصاب بِوَجْهٍ ذي سُخْنَةٍ تُشَبِّه وجه الأسد، عرفت حديثاً (السَّحْنَةُ الأَسَدِيَّة).

ومنعاً لانتشار الأمراض والأوبئة وضع رسول الله ﷺ قاعدتين أساسيتين تعتبران من أساسيات الطب الوقائي الحديث بعد اكتشاف مُسَبِّبات الأمراض والأوبئة وهما قاعدتا العزل والحجر الصحي، ففي الأولى قال رسول الله ﷺ: «لا يوردن مُمْرَضٌ عَلَى مُصِحٍّ»، وفي الثانية قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم بالطَّاعُونَ فِي أَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا»⁽⁴⁾.

(1) الزنداني، المرجع السابق، ص 12.

(2) رواه البخاري باب الجذام، 231 / 7.

(3) رواه البخاري، باب الجذام، 231 / 7.

(4) رواه البخاري باب ما يذكر في الطَّاعُونَ، 237 / 7. كذلك عبد الجواد الصاوي، المرجع السابق، ص 18.

لقد كانت الأوبئة الفتّانة والأمراض المُعدية في العالم الإسلامي أقل بكثير منها في أوروبا، في المرحلة نفسها، بل إنّ موجات الطاعون التي كانت تقضي على ربع سكّان أوروبا كانت تنكسر حدّتها عند حُدود العالم الإسلامي.

رابعاً - تجنّب لحوم الحيوانات المُحرّمة لمخاطرها.

قد تنتقل الكائنات الدقيقة للإنسان عن طريق أكل لحوم الحيوانات الخازنة أو المُصابة بها أو تناول مُنتجاتها لذلك حرّم الإسلام أكل لحومها أو حتى التعامل معها وسَمّاها خبائث في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾⁽¹⁾، فحرّم أكل لحوم الحيوانات الميتة والدّم وأكل لحوم الخنزير، والسّباع والطّيور الجارحة، وأكل الحيوانات والطّيور التي تتغذى على القاذورات، واقتناء الكلاب والتعامل معها إلا لضرورة، وقد أثبت العلم أنّ هذه الحيوانات ولحومها تُشكّل بؤراً لتجمّعات هائلة وخطيرة من الكائنات الدقيقة الفتّانة بالإنسان. إنّ لحوم الميتة والدّماء المَسفوحة هي أولى الخبائث التي حرّمها الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ﴾⁽²⁾، ولقد تحقّق ضررها علمياً وظهّر خطرُها على حياة الإنسان؛ وذلك لأنّ احتباس دم الميتة في عروقها المُتشعّبة ضِمن أنسجتها ييسر للجراثيم التي تعيش مُتطفلة على الحيوان في الفتحات الطبعيّة والأمعاء والجلد، أنّ تنتشر بِسرعة وسط اللّحم من خلال السائل الزلالي في الأوعية والعروق، وتتكاثر بِسرعة وينتج عنها مُرغبات كريهة الرّائحة سامة التأثير، كما قد يموت الحيوان بسبب مرض مُعيّن فتنتقل جُراثِمة المرض إلى الإنسان فتؤذيه وقد تهلّكه، كما في مرض السّل والجمرة الخبيثة وجراثيم السلمونيلا وداء الكَلْب⁽³⁾. وقد حرّم الله سبحانه -أيضاً- الميتة بسبب الاختناق أو بسبب الرض سواء كان ذلك الرض بالوقد أو التردّي من مكان عالٍ أو بواسطة النّطح من حيوان آخر وكذلك ما أكل السبع؛ لأنّ تلك الأنواع

(1) سورة الأعراف، من الآية: 157.

(2) سورة المائدة، من الآية: 3.

(3) عبد الدائم أحمد جواد، الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم، ط1، دار السلام للطباعة والنشر، (القاهرة، 1407هـ)، ص124.

إضافة إلى ما ينتج عن احتباس دمائها في أنسجتها من الأخطار السابقة فإن الاختناق يزيد من سرعة تعفن الجثة، والرض يُسبب انتشار الدم تحت الجلد وداخل اللحم والأنسجة في الأماكن المروضة، وقد تكون به جروح تُسهّل عبور جراثيم الهواء إلى داخل الأنسجة فتعجل بتحللها وفسادها، وما تحمله السباع من جراثيم وكائنات دقيقة فتأكل بين أنيابها تؤدي النتيجة نفسها بأنسجة الحيوان ولحمه مما تجعله يُشكل خطراً داهماً على حياة الإنسان حينما يأكل لحمة⁽¹⁾.

أ - أخطار أكل الدّم:

يُعتبر الدّم من أخطر الأوساط لنمو شتى الجراثيم وانتشارها وحينما يسفح الدم بالذبح أو الفصد فإنه يعزل عن الأوعية الدّمويّة التي تحفظ حيويته وتقيه من التلوث؛ حيث تفقد كريات الدّم البيضاء قدرتها على التهام الجراثيم وتموت خلايا جهاز المناعة، وتنهزم آلياته فتتكاثر الجراثيم بسرعة مذهلة، وتفرز سموماً (Toxins) فتأكل قد تكون أشد مقاومة لحرارة الطبخ من الجراثيم ذاتها⁽²⁾.

ب - أخطار أكل لحم الخنزير:

أمّا الخنزير فإننا نوجز القول فيه حيث يقول ربنا سبحانه عنه: ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ والرجس الشيء القذر، والأقذار والنجاسات هي السبب الأكبر في إصابة الإنسان بالأمراض المختلفة لما فيها من جراثيم وطفيليات مُمرضة، فالخنزير ينقل إلى الإنسان كثيراً من الكائنات الدقيقة الخطرة؛ حيث يُصاب الخنزير بعدد كبير من الأمراض البوائيّة لا تقلّ عن (450) مرضاً، ويقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من (75) مرضاً وبائياً للإنسان غير الأمراض العاديّة الأخرى التي يُسببها أكل لحمة، مثل تليّف الكبِد وعسر الهضم والحساسية الغذائيّة وتصلّب الشرايين وتساقط شعر الرأس وضعف الذاكرة والعُقم، وتنشيطه لمرض الربو والروماتيزم وكثرة الأكياس الدهنيّة وعلاوة على آثاره

(1) الدقار، الطبيب محمد نزار: تحريم القرآن لأكل لحم الخنزير، موقع مجلة الابتسامة، ص 19.

(2) عبد الدائم أحمد جواد، الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم، ص 16.

السَّيِّئَةُ عَلَى الْعَقَّةِ وَالْغَيْرَةِ فِي التَّكْوِينِ النَّفْسِيِّ. وَيَنْقَلُ الْخِنْزِيرُ بِمُفْرَدِهِ (27) مَرَضاً إِلَى الْإِنْسَانِ وَتُشَارِكُهُ بَعْضُ الْحَيَوَانَاتِ فِي بَقِيَّةِ الْأَمْرَاضِ عَلَى أَنَّهُ يَقُومُ بِدَوْرِ الْمَخْزُونِ وَالْمَصْدَرِ الْأَسَاسِيِّ لِهَذِهِ الْأَمْرَاضِ فِي نَقْلِهَا إِلَى الْإِنْسَانِ مُبَاشَرَةً بِنَقْلِهَا إِلَى الْحَيَوَانَاتِ الْقَابِلَةِ لِلْعَدْوَى، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْإِنْسَانِ. وَيَنْتَقِلُ أَكْثَرُ مِنْ (16) مَرَضاً مِنَ الْخِنْزِيرِ إِلَى الْإِنْسَانِ عَنْ طَرِيقِ تَنَاوُلِ لَحْمِهِ وَمُنتَجَاتِهِ... وَأَهَمُّ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ هِيَ الْحَوِصَلَاتُ الْخِنْزِيرِيَّةُ وَالْحَمَمَى الْمُتَمَوِّجَةُ وَالذُّودَةُ الْكَبِدِيَّةُ وَدَاءُ وَايِل، وَدَاءُ الْمَكْسِيَّاتِ اللَّحْمِيَّةِ، وَالتَّهَابُ السَّحَايَا وَالْمَشِيمَةُ، وَدَاءُ الْيَرْقَانَاتِ الشَّرِيطِيَّةِ الْجَوَّالَةِ، وَالذُّودَةُ الْوَحِيدَةُ الْمُسَلَّحَةُ، وَدَاءُ الْمُصَوَّرَاتِ الدِّيْفَانِيَّةِ الْمُقْوَسَةِ، وَدَاءُ الشَّعْرِيَّاتِ الْحَلْزُونِيَّةِ، وَالذَّيْدَانِ السَّوْطِيَّةِ، وَدَاءُ السَّلِّ، وَدَاءُ الْمُبْيَضَاتِ الْفَطْرِيَّةِ، وَالْإِلْتِهَابَاتِ الْمَعْوِيَّةِ بِجَرَاثِيمِ السَّالْمُونِيَّاتِ وَالشَّايَجَالَا وَغَيْرِ ذَلِكَ⁽¹⁾.

كَمَا تَنْتَقِلُ عَنْ طَرِيقِ الْمُخَالَطَةِ وَالتَّربِيَةِ وَالتَّعَامُلِ مَعَ مُنْتَجَاتِ الْخِنْزِيرِ وَمُخْلَفَاتِهِ عِدَّةُ أَمْرَاضٍ لَا تَقِلُّ عَنْ (32) مَرَضاً، وَأَكْثَرُ النَّاسِ إِصَابَةً بِهَا هُمْ عُمَّالُ الزَّرَائِبِ وَالْمَجَازِرِ وَالْأَطْبَاءُ الْبَيْطَرِيُونَ. وَأَهَمُّ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ عِلَاقَةُ عَلَى بَعْضِ الْأَمْرَاضِ السَّابِقَةِ، الْجَمْرَةُ الْخَبِيثَةُ، الْكَلْبُ الْكَاذِبُ، الزَّحَارُ الزَّقِي، الْحَمَمَى الْقِلَاعِيَّةُ، الْجَمْرَةُ الْخِنْزِيرِيَّةُ، التَّسَمُّمُ الدَّمَوِيُّ، الْأَنْفَلُونِزَا الْخِنْزِيرِيَّةُ، الْحَمَمَى الْيَابَانِيَّةُ الْخِنْزِيرِيَّةُ، الذَّيْدَانِ الرَّئُوءِيَّةُ الْخِنْزِيرِيَّةُ، الْجَرَبُ الْغَائِرُ، السَّعَارُ، دَاءُ النَّوْمِ، الذَّيْدَانِ الْقُنْفُذِيَّةُ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. كَمَا تَنْتَقِلُ عِدَّةُ أَمْرَاضٍ لَا تَقِلُّ عَنْ (28) مَرَضاً عَنْ طَرِيقِ تَلَوُّثِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ بِمُخْلَفَاتِ الْخِنْزِيرِ⁽²⁾.

ج - أخطار الكلاب:

لَقَدْ شَدَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّهْيَ عَنْ مُخَالَطَةِ الْكَلَابِ، وَهِيَ سِبَاعُ مُدَجَّجَةٍ فِيهَا مِنَ الطُّفَيْلِيَّاتِ وَالْجَرَاثِيمِ الدَّقِيقَةِ الشَّيْءِ الْكَثِيرِ، وَالتِّي قَدْ تُسَبِّبُ لِلْإِنْسَانِ أخطاراً مُحَقَّقَةً مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ:

(1) المرجع نفسه، ص 18.

(2) المرجع نفسه، ص 19.

1 - احتواء أمعاء الكلاب على أعداد كبيرة من الديدان الشريطية والتي تنتقل إلى الإنسان عن طريق ابتلاع بيضها الموجود في الطعام أو الماء الملوّث ببراز الكلاب.

2 - داء الكلب المعروف وبعض أنواع داء الليشمانيات.

3 - مرض الكيسة المائية الكلبية والتي تكون الكلاب فيها هي السبب الغالب في إصابة الإنسان وحيواناته الأليفة والتي تتغذى على الجيف؛ ذلك لأنّ الكلب يُنظف استه بلسانه فينتقل بيوض ديدان (الشريطية المكوّرة المشوكة) والتي تعيش في أمعائه إلى الإنسان عن طريق الطعام أو الماء الملوّث بها وتُسبب له (داء الكيسات المائية الخطير).

4 - كثير من الأمراض الطفيلية وأخطرها مرض (عداري) والتي تُسببه الدودة الشريطية (أكنوكاوكاسجرانيولوساس) والتي توجد في كل مناطق العالم التي تعيش فيها الكلاب على مقربة من الحيوانات الداجنة آكلة العشب. من هذا وغيره ندرك السر في نهى الرسول ﷺ عن اقتناء الكلاب إلا لضرورة. عن أبي طلحة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب»⁽¹⁾، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط»⁽²⁾، كما ندرك السر في قوله ﷺ: «طهور إناء أحدهم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرّات أولاًهنّ بالتراب»⁽³⁾.

أن أوجه الإعجاز في هذه النصوص التي وردت في هذا البحث -ومثلها كثير- فالمتدبر فيها يلاحظ الإشارة الجليّة أحياناً والإشارة الخفية أحياناً أخرى إلى عالم الكائنات الدقيقة وإلى المواد الضارة بوصفها مسببات للأمراض وحدوث العلل وانتشار الأوبئة، بينما كان الناس في زمن الرسول ﷺ وقبل

(1) رواه البخاري، 310 / 7.

(2) رواه البخاري، 157 / 7.

(3) رواه البخاري، 90 / 1.

زمنه بل وبعده -حتى اكتشاف (باستير) الميكروبات- يعتقدون أنَّ الأمراض تُسببها الأرواح الشريرة والشياطين والنُّجُوم ولا علاقة لها بنظافة أو نظام أو سلوك وكانوا يطلبون لها العلاج بالشعوذة والخرافات. قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَتُهُ فَعَرَفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾.

وهكذا أثبت العلم سبق القرآن الكريم والسنة النبوية في الإشارة إلى الكائنات الدقيقة، ومُسببات الأمراض. وقد قَدَّمَ الإسلام للبشرية أيسر وأنجح السُّبل في القضاء عليها وحماية الإنسان ووقايتها من أخطارها، ورأى العلماء بأعينهم صدق وحي الله لرسول الله ﷺ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾⁽²⁾.

خامساً - مُعالجة الأمراض النفسية

فقد كان هُذيه توجيه طاقة المريض إلى فعل الخير في المُجتمع، والاعتماد والتوكل على الله والالتجاء إليه والتسليم له والانكسار بين يديه، والصدقة والدعاء، والتوبة والاستغفار، والإحسان وإعانة الملهوف والترجيح عن المكروب. فقد عِلِم أنَّ الأرواح تقوى متى قويت النفس والطبيعة، وتعاونوا على دَفْع الداء وقهره، فكيف يضعف من قويت طبيعته وفرحت بِقُربها من بارئها وحبها له وتنعمها بِذكره وأنصرافها إليه واستعانتها به وتوكلها عليه. وهذا يكون لها من أكبر الأدوية، وتوجب هذه القوة دَفْع الألم عن الإنسان⁽³⁾. ومن أهم نِعَم الله التي تُحَقِّق الصَّحَّة النفسية والجنسية وبناء الأسرة التي هي الوحدة الاجتماعية الأساسية، الزواج. ولذلك ذكره الله سبحانه وتعالى في عدد من الآيات، منها: ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾⁽⁴⁾، وقد أمر النبي بالزواج وحث عليه فقال:

(1) سورة النمل، الآية: 93.

(2) سورة سبأ، الآية: 6.

(3) ابن قَيِّم الجَوَزيَّة، المصدر السابق، ص 168.

(4) سورة الروم، من الآية: 21.

«النِّكَاحُ مَنْ سَتَّى فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسَتِّي فَلَيْسَ مِنِّي»⁽¹⁾، وقال عليه الصلاة والسلام مُخَاطَباً شَبَابَ أُمَّتِهِ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»⁽²⁾.

ذلك أَنَّ الزَّوَاجَ يَدْعُو إِلَى الْحِفَافِ عَلَى الْأُسْرَةِ الَّتِي تَوْدِي إِلَى تَكْوِينِ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْأَبْنَاءُ سُعْدَاءَ فِي ظِلِّ مِظْلَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَكْتَمِلُ فِيهَا جَمِيعُ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ الَّتِي تَوَثِّرُ فِي نَفْسِيَّةِ الْفَرْدِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي أَقْوَالِ النَّبِيِّ الْكَثِيرِ مِنَ الطُّرُقِ الْوَقَائِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالْعِلَاجِيَّةِ وَالنِّصَائِحِ الطَّبِيَّةِ الْمُهِمَّةِ، مِمَّا يُخَالِفُ مِزَاجَ ابْنِ خُلْدُونِ الَّذِي يَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُقَدِّرُ كَثِيراً أَهْمِيَّةَ الطَّبِّ النَّبَوِيِّ حِينَ قَالَ عَنِ الرَّسُولِ: «إِنَّمَا بُعِثَ لِيُعَلِّمَنَا الشَّرَائِعَ، وَلَمْ يُبْعَثْ لَتَعْرِيفِ الطَّبِّ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ الْعَادَاتِ. وَقَدْ وَقَعَ فِي شَأْنِ تَلْقِيحِ النَّخْلِ مَا وَقَعَ، فَقَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَ شَيْءٌ مِنَ الطَّبِّ الَّذِي وَقَعَ فِي الْأَحَادِيثِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ إِلَّا إِذَا اسْتُعْمِلَ عَلَى وَجْهِهِ التَّبَرُّكُ وَصِدْقُ الْعَقْدِ الْإِيمَانِيِّ، فَيَكُونُ لَهُ أَثَرُ الْكَلِمَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاوَاةِ الْبُطُونِ بِالْعَسَلِ». وَالَّتِي تَتَضَحُّ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ يَشْتَكِي مَرَضَ أَخِيهِ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي هَذَا اسْتَطْلَقَ بَطْنَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «اسْقِهِ عَسَلاً» فَسَقَاهُ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: إِنَّنِي سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتَطْلَاقاً. فَقَالَ لَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلاً فَقَالَ: لَقَدْ سَقَيْتُهُ عَسَلاً فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتَطْلَاقاً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلاً» فَسَقَاهُ فَبُرِّ⁽³⁾.

وَالْحَقُّ أَنَّ عِبَارَةَ ابْنِ خُلْدُونِ هَذِهِ قَدْ أَعْطَتْ فُرْصَةً ذَهَبِيَّةً لِبَعْضِ الْحَاقِقِينَ الَّذِينَ حَافِلُوا التَّقْلِيلِ مِنْ أَهْمِيَّةِ الطَّبِّ النَّبَوِيِّ بِحُجَّةٍ أَنَّ قِسْماً مِنْهُ مَنَقُولٌ مِنْ آرَاءِ الْحَارِثِ بْنِ كُلْدَةَ، وَأَنَّ مَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ أَحَادِيثٌ لَا تَتَعَدَّى النِّصَائِحِ وَالْإِرْشَادَاتِ وَبَعْضُ الْمَعْلُومَاتِ عَنِ الصِّحَّةِ الْعَامَّةِ وَنَسُوا أَوْ تَنَاسَوْا قَوْلَهُ: «مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يَعْلَمْ مِنْهُ الطَّبُّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَهُوَ ضَامِنٌ»؛ أَي: يَضْمَنُ

(1) البخاري، كتاب النكاح، 2/7.

(2) البخاري، كتاب النكاح، 3/7.

(3) البخاري، كتاب الأطعمة، 139/7.

الأضرار التي تلحق بالمريض من جراء تطبّبه⁽¹⁾. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾⁽²⁾.

وممّا سبق يتّضح أنّ للطب الوقائي خصائص لمحنها في هديه عليه السلام، منها:

- 1 - السّبق المُبكر بعلم الوقاية: حيث أرست قواعدها قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزّمن يوم كان العالم يغطّ في سُبات عميق من الجَهْل وقِلّة المعرفة.
- 2 - المِصداقيّة: حيث أصبحت بديهيّات هذا الطّب أملاً وغاية يسعى العِلْم الحديث للوصول إليها وتحقيقها، وهكذا يزداد اليقين بهذا الدّين رسوخاً على مدى الأيام.
- 3 - البساطة واليسر: البساطة في التّكليف واليسر في التّنفيد؛ بحيث لا يستلزم كلفة مادّية ولا جُهداً مُرهقاً يقعد الهمم.
- 4 - لا تستلزم المؤهّلات الصّحيّة: فتطبيقها بالنّسبة للمسلم لا يحتاج إلى إجراءات مُعقّدة تستلزم قدراً هائلاً من المعرفة، أو حدّاً مُتميّزاً من الذّكاء، أو مؤهلاً عِلْمياً مُعيّناً، فكل فرد من المسلمين مؤهل لذلك.
- 5 - الذاتيّة في التّنفيد: أي: أنّ المسلم يقوم بالتّطبيق تعبّداً لله تعالى؛ فهو لا يحتاج إلى مُدير يُراقبه، أو شُرطي يُحاسبه؛ لأنّ الرقيب هو الله تعالى، وواعظ المؤمن ينبع من أعماق نفسه؛ لذا فالمجتمع الإسلامي في غنى عن الرّقابة الحُكوميّة في تّنفيد هذه القواعد الصّحيّة.
- 6 - الشّمولية: ونعني بها أنّ قواعد الطّب الوقائي في السّنة جزء من كلّ، فهي من حيث قوّة الإلزام ووجوب النّفاذ تتميّز عن نظريّة الطّب الوقائي المُعاصر؛ إذ إنّها تتعامل مع الإنسان على أنّه مادّة وروح؛ وفّق المنهج الإسلامي الشّامل.
- 7 - الحِماية من الأمراض الجنسيّة: نظّم الإسلام النشاط الجنسي تنظيمًا

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص178.

(2) سورة النجم، الآيتان: 3-4.

مُتوازنًا، فلم يكبت الغريزة، ولم يطلق جماحها، ولكن اعترف بها وأشبعها في إطار ضوابط شرعية مُحكمة، فسَدَّت بذلك منابع الأمراض الجنسية والاجتماعية، التي تُعاني منها المُجتمعات الأخرى.

8 - التركيز على الوقاية: تُركِّز السُّنة على وقاية المُسلم من الأمراض، ولا تدعه حتى يقع فيها لتعالجه؛ حيث إنَّها تُغلِّق منافذ المَرَض كُلِّها، وتُبشِّر من يحمي مُجتمعه من الأوبئة بالثَّواب والأجر العظيم.

9 - الديمومة: الالتزام بالأوامر الإسلامية الصَّحيَّة ليس مرهونًا بِمُدَّة، أو بسن مُعيَّنة، بل تبقى وتطبق ما دام الإنسان قادرًا على العبادة.

10 - قوانين الطِّب الوقائي في السُّنة: تعنى بالإنسان في جانبيه: المادي والروحي، وبالتالي فهي تَحْميه من أمراض كثيرة في القلوب والنُّفوس، وتُبْعده عن كل ما يعرِّضه للأمراض⁽¹⁾.

التأج:

1 - الأخذ بالهَدْي النبوي يوفِّر على الشخص الكثير من تكاليف العلاج وبقيه من المتاعب والأضرار التي تقع عليه وعلى غيره ممَّن يُحيط به.

2 - ما جاء في السُّنة النبوية من إرشادات لا تحتاج في الغالب إلى مبالغ باهظة في طُرق الوقاية بل ما على المسلم إلَّا أن ينظر في السُّنة ويعمل بها وإن لم تظهر له الحِكْمة من الهَدْي النبوي في الحال لكن فيه الصَّلاح له، والكثير منه قد كشف عنه العِلْم الحديث فكان إعجازاً وسبقاً عِلْمياً باقياً على مرِّ الأجيال.

3 - أنَّ الالتزام بالهَدْي النبوي فيه الوقاية من الأمراض الظاهرة والباطنة.

4 - من الأهمِّية بمكان تربية النشء على تعاليم الإسلام وأوامره في المُحافظة على الصَّحَّة العامَّة والخاصَّة وتطبيق الهَدْي النبوي في كُلِّ الأحيان حتى يتربَّى على مَحَبَّته والالتزام بشرعه.

(1) محمد عبد الرزاق أسود، بحث مُقدِّم إلى مؤتمر السُّنة النبوية في الدراسات المُعاصرة بجامعة اليرموك بإربد بالمملكة الأردنية الهاشمية (1428هـ/2007م)، ص3.